المحاضرة الثانية:

شروط قيام الحضارة(عوامل التحضر) والأفول الحضاري:

أولا/ شروط قيام الحضارة (عوامل التحضّر)

حصر المؤرخ الحضاري "ول ديورانت " شروط قيام حضارة ما في أربعة عوامل ، اثنان منها يعودان الى الطبيعة : العامل الجيولوجي و العامل الجغرافي، و اثنان يعو دان الى الانسان نفسه هما : العامل الاقتصادي و العامل النفسي المتمثل في الامن و الاخلاق ووحدة اللغة .

اما توينبي فقد لخصها في عامل واحد هو "التحدّي" الذي تتعرض له المجموعة البشرية من قبل الطبيعة او من قبل الانسان نفسه فتحصل ازاءه استجابة منها تكون بداية لحياة التحضر ،كما تكون عامل نمو و استمرار فيها.

و مثال على ذلك (الصحراء الكبرى) التي كانت سهولا خصبة ملأى بالاعشاب و المياه ، و بتغير الظروف المناخية سلك السكان طرقا ثلاثة استجابة لهذا التحدي :

1/ فبعضهم ظلوا مقيمين في الصحراء الكبرى و بدلو عاداتهم و نمط معيشتهم الى بدو رحل .

2/و آخرون انتقلو الى المناطق المدارية جنوبا حيث الغابات ، و حافظو على حياتهم البدائية.

3/و آخرون قبلوا التحدي ، فدخلوا المستنقعات و عملوا على تجفيفها و إعدادها للزراعة ، و أتوا بحضارات مختلفة كالحضارة المصرية القديمة ، الحضارة السومرية ، و كذلك حضارة الصين ...(توبيني مختصر دراسة التاريخ 86/1).

ويرى مالك ابن نبي ان عوامل الحضارة أربعة: الأفكار (وخاصة الدينية منها)، الانسان، التراب والزمان.

فالمقصود بالإنسان هو الفعالية الحضارية التي تتكون فيه، والتراب يمثل البيئة الجغرافية التي يعيش فيها، والزمن هو الاستثمار الفاعل للوقت، والفكرة هي العامل الأساسي في التفعيل الحضاري لهذه العناصر الثلاثة.

وإذا شئنا صياغة هذه الشروط او تلك العوامل التي ظهرت في آراء هؤلاء المفكرين بطريقة أخرى تبدو أكثر عموما وتجريدا، بحيث تصدق على ظاهرة الحضارة لأمكننا تحديد ثلاث عوامل أساسية، إذا اجتمعت أدت الى ظهور حضارة ما ونموها واستمرارها، وهي: فكرة عن الوجود والحياة، ودافع يجعل تلك الفكرة فاعلة في الواقع، وبيئة طبيعية تستجيب لإرادة التحضر.

1/عامل الفكرة:

ونعني بالفكرة التي هي شرط أساس في قيام الحضارة، "تلك الرؤية الشاملة في تفسير الوجود، وفي تقويم حياة الانسان، انتهاء بذلك الى تحديد غاية هذه الحياة، يسعى المجتمع الى تحقيقها ".

ومهما يكن من امر هذه الفكرة قوة وضعفا وسدادا وضلالا، فإنها تمثل العامل الأساسي في كل ظاهرة تحضر، بحيث لا تنشأ حضارة على غير أساس من فكرة. وهذا ما أكده مالك بن نبي في قوله:" إنّ حضارة ما هي نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تدخل به التاريخ، ويبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقا للنموذج الأصلي لحضارته، انه يتجذر في محيط في محيط ثقافي أصلي يحدد سائر خصائصه التي تميزه عن الثقافات والحضارات الأخرى ".

وبهذا البيان يكون مالك بن نبي أوضح من توبيني بكثير في اثبات ما للفكرة من اثر في انشاء الحضارة، اذ ان توبيني و ان كان يثبت للفكرة الدينة على الخصوص دورا في تأسيس الحضارة، الا ان نظريته العامة في قيام الحضارات على قاعدة التحدي و الاستجابة تعطي انطباعا بان الحضارة تنشأ عن ردة فعل أكثر من انها تنشأ عن ردة فعل أكثر من انّها تنشأ عن فكرة مسبقة شاملة عن الكون و الوجود.

و الفكرة ليست عامل انشاء فقط، و انما هي أيضا عامل صياغة للبناء الحضاري في جميع جوانبه ، بحيث تضل بعد الانشاء الأول تكيف كل التداعيات الحضارية المادية و المعنوية بحسبها ، و ذلك ما يبدو جليا في الحضارة الإسلامية التي قامت على فكرة تمحيض الدّينونة الحياة الإنسانية كلها للاله الواحد حيث جاءت هذه الحضارة مطبوعة بطابع التوحيد في علومها و فنونها و عمرانها المدني و قيمها الأخلاقية و الاجتماعية .

2/ **عامل البيئة الطبيعية**:

البيئة الطبيعية هي مسرح الحضارة، فعلى الأرض يكون استقرار الانسان ، و من مرافقها يرتفق لاستيفاء حاجاته ، و تنمية أساليب حياته. و بطبيعة المناخ الجغرافي يكون نشاطه محكوما انبساطا و انقباضا وعلى أساس الأرض و المناخ تتحدد حركته في الانتفاع بالتبدل الثقافي و الاقتصادي ممّا له اثر بالغ في قيام الحضارة.

و على هذا الاعتبار فإنّ حياة متحضرة للإنسان لا يمكن ان تنشأ او تنمو الا على مسرح بيئي مستجيب للاستعطاء في ارضه و مناخه .و كم هي الجماعات التي عاشت في بيئاتها دهرا طويلا متوفرة لها اهم عوامل التحضر ،و لكن فظاظة تلك البيئة أبقت عليها في حياة البداوة، و كذلك كم من حضارة ازدهرت في بيئة معطاة ثم انقرضت لتبدلات مناخية عاتية في تلك البيئة، و ذلك شأن مجموعات الاسكيمو في القطب الشمالي المتجمد كشاهد على الحالة الأولى ، وهو شان الانتهاء الحضاري في بابل و نينوى (التصحر) كشاهد على الحالة الثانية ، ولا تكون البيئة الطبيعية عامل تحضر الا حينما تتوفر على إمكانية الاستقرار و الاستثمار مع توفرها على قدر من الاستعصاء، فلا تنفسخ الا بجهد انساني يثمر من قبلها العطاء الذي يكون به التحضر.

وعليه فان البيئة الطبيعية تمثل عامل تحضر حينما تكون في الحد الوسط الذي يتحدى فيه الانسان الى نقطة التوتر و القدرة على الاستجابة و الفعل و الاعمار، و يتجاوز التكشف الكامل و الانغلاق الذي يستحيل معه ردة الفعل و الابداع، و لعل هذا احد المعاني في قوله تعالى: "و لو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض و لكن ينزل بقدر ما يشاء انّه بعباده خبير بصير".. الشورى 27 .

3/ عامل الدافع الحضاري:

قد يتوفر مجتمع ما على تتضمن فيها عنصر القوة ، و تبنى على قدر كبير من الحق في شرح الوجود وتقدير الحياة، كما يتوفر أيضا على بيئة طبيعية في حدها الوسط بين الانكشاف و الانغلاق ، و لكن مع ذلك لا تتطور حياته الى التحضر، أو يخطو في الحضارة خطوات سرعان ما تنتكس الى بداوة أوما يشبهها ، و من شواهد ذلك ان الشعوب التي اعتنقت المسيحية رغم انتشار كثير منها في بيئات صالحة الا ان التحضر المسيحي لم ينشأ الا بعد المسيحية بألف عام في شمال أوروبا ،و كذلك فان الشعوب الإسلامية آلت بعد بضعة قرون من التحضر الى وضع من الجمود ، انتهى الى ما يشبه البداوة .

و تفسير ذلك ان للتحضر عاملا ثالثا بالغ الأهمية و هو الدافع الذي يدفع المجتمع الى البناء الحضاري و الاستمرار فيه ، وهو عامل يتكون في النفوس تكونا جماعيا ،تكون له قوة توحيد كما تكون له قوة استنفار، تهب بها المجموعة في خط مشترك للتعمير و التنمية استثمارا للبيئة الطبيعية و ترقية للكيان الإنساني الفردي و الجماعي.

و يمكن ان نفسر هذا العامل بانه عامل تفعيل للفكرة من جهة و للبيئة من جهة أخرى، بحيث تصير به الفكرة فاعلة في النفس، دافعة للعمل من اجل تحقيق تلك الغاية ،كما يصير به للطبيعة موقع في النفس يدفع الى اقحامها لمباشرة استثمارها و التعمير فيها ...و في حال عدم توفر هذا الدافع النفسي بقيت الفكرة في الاذهان لا قيمة واقعيّة لها ككثير من الأفكار الفلسفية المجردة، و بقيت البيئة الطبيعية مسرحا للوجود لا مسرحا للفعل و الاستثمار ،فتنتفي عندها الحضارة لانتفاء الدافع اليها.

و قد وصف مالك بن نبي هذا الدافع الحضاري ب" تسجيل الفكرة في الانفس " مرة ، و وصفه في الأخرى ب"الانطباع في النفوس" أي اشراق فاعلية الفكرة الدافعة للتعمير في النفس.

و حاول توبيني شرح هذا العامل من خلال نظريته في التحدي و الاستجابة بانه "استشعار الاخطار المهددة من الطبيعة او من الانسان استشعارا يدفع الى ردة فعل باثبات الذات الجماعية عبر حركة التحضر".

ان الفكرة حينما تحل في النفس حلولا ايمانيا، يكون حلولها الايماني ذلك هو الدافع النفسي للعمل الحضاري ، و الحلول الايماني للفكرة انما هو ذلك الوضع الذي تكتسبه في النفس، بالغا فيها من العمق درجة تصبح بها مسيطرة على كل الكيان الإنساني، فتوجه قدرات ذلك الكيان توجيها موحدا نحو العمل الانجازي لتحقيقها في الواقع، و كذلك فان البيئة الطبيعية حينما تحل في النفس محل الأداة المسخرة من أجل تنفيذ الفكرة فانها تكون عامل جذب و ترغيب لاستثمارها و التعمير فيها ، و لعلّ اشدّ ما يكسب الفكرة الدرجة الايمانية في النفس هو الدين ، حيث تستشعر النفوس استشعارا جماعيا قداسة المصدر الذي املى الفكرة، فتوجه كل القوى الانسان في مرضاة ذلك المصدر في تحقيق ما حدد من غاية للحياة و كذلك بالنسبة لمنزلة الطبيعة من نفس و هذا ما حد بكثير من مؤرخي الحضارة باعتبار العامل الديني العامل الأساسي في تفعيل الفكرة و دفعها الى الإنجاز الحضاري.

ثالثا/أفول الحضارة و دواعي التحضّر:

يقول وول ديورانت :"المدنية ليست شيئا مجبولا في فطرة الانسان، كلا و لا هي شيء يستعصي على الفناء انما هي شيء لا بد ان يكتسبه كل جيل من الأجيال اكتسابا جديدا"

فلما كانت الحضارة وضعا إنسانيا مكتسبا وفق العوامل و الأسباب ، فانها بذلك تحمل في ذاتها إمكانية تصدعها و تلاشيها و افولها و الشاهد التاريخي قائم في هذا المعنى. اذ حفل تاريخ الانسان بحضارات كثيرة بلغ بعضها اوج العظمى ثم لفها الفناء، و بعض الحضارات تشهد الان أدوارها الأخيرة في الانحلال و البعض الآخر يشهد إرهاصات و نذر ببداية الانحدار نحو الافول.

و قد انقسم مؤرخو الحضارة الى قسمين في نظرتهم الى افول الحضارات و تداعيها ،قسم يرى حتمية سقوط الحضارة، بل يعده دورا لازما في حياة التحضر، و هو رأي ابن خلدون و اشبنجلر، فابن خلدون يوحي تحليله للمجتمع البشري بانه يتوجه هذه الوجهة الحتمية، و ان كانت وحدة الدراسة عنده الدولة و ليست الحضارة الا ان مزج تحليله للعمر السياسي للدولة باحوال التحضر المادي و المعنوي يوحي بانه يميل الى القول بحتمية التداعي للحضارات كحتمية التداعي للدول.

و اما اشبنجلر فقد اقام فلسفته في الحضارة ، على ان الحضارات شانها في ذلك شان جميع القوى الطبيعية تتبع نمطا مشتركا من المولد و النمو و الانحدار و الموت.

و قسم آخر يرى أن مال كل حضارة انما هو مال مرتبط بالارادة الإنسانية ، أي يتوقف على كسب الانسان ، فاذا تعلقت هذه الإرادة باسباب الحضارة و عوامل اقامتها فانها قد تستمر باطراد دون ان تنتهي الى اضمحلال ...و هو رأي توبيني و مالك بن نبي فتوبيني يرى ان ليس ثمة من الأسباب ما يمنع من تسلسل الردود المفحمة على التحديات المثيرة الى مالا نهاية و اما مالك بن نبي فقد رسم دورة الحضارة ذات الثلاث مراحل : مرحلة الروح، مرحلة العقل و مرحلة الغريزة و قد سماها بالدورة الخالدة. الا انه لم يجعلها دورة حتمية المآل الى الزوال، بل انه حلل بها الحضارات الزائلة، و الا فان الحضارة يمكن ان تستمر في الفكرة الدينية تحيي فيها غائية معينة.

اذا كان منشأ الحضارة اراديا مكتسبا و ليس عن فطرة ، فانه من المعقول أن يكون تداعيها و استمرارها أمرا اراديا مكتسبا أيضا .وعليه فان مآل الحضارة الى الفناء انما هو من مكتسبات الانسان باكتساب أسبابها .و لو تعلقت إرادته بأسباب الاستمرار لما كان لحضارته زوال .

وعليه فقد اجتهد مؤرخو الحضارة في بحث أسباب التداعي أو الافول الحضاري ، وأسفر اجتهادهم عن جملة من الأسباب التي في معظمها ترجع الى اغلال تصيب تلك العوامل الثلاثة التي ذكرناها في شروط قيام الحضارة.

فالاسباب تعود الى عامل الفكرة تتمثل في انحراف الفكرة التي دفعت الى قيام التحضر .كأن يؤول تصور الوجود الى تصور وهمي خرافي ، او يؤول تصور الانسان و دوره في الحياة وغايته منها الئ

مفاهيم تنزع منزع الاستنقاص للذات، او منزع للتشاؤم و الياس و العبثية . يقول شفستر :"كل تقدم انساني يتوقف على التقدم في نظريته في الكون ، و على العكس نجد ان كل انحلال سببه انحلال مماثل في نظريته في الكون " وعلى ذلك فانه " اذا انتج المفكرون في عصر من العصور نظرية في الكون ثمينة ، فان الأفكار تتداول بين الناس تداولا لا يؤدي الى ضمان التقدم ، وان عجزوا عن ذلك بدأ الانحلال يدب على نحو او اخر ، فكل نظرية في الكون تجر وراءها نتائجها التاريخية " (فلسفة الحضارة) .

و في القران الكريم آيات كثيرة تشير الى ان سقوط التحضر يكون بسبب من خلل في الفكرة تطرأ على المومنين بوحدانية الله و ما يتفرّع منها ، و لعل أجمع آيتين لهذا المعنى **قوله تعالى :" ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفراً و أحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها و بيس القرار ". إبراهيم 28 29 .**

و الأسباب التي تعود الى البيئة الجغرافية تتمثل في تغيرات بيئة أرضية و مناخية ذات صبغة انقلابية تخرج بها عن الحد الصالح الذي نشأت به الحضارة و تطورت و يكون ذلك في مظهرين :

الاوّل:

تحول مناطق الخصوبة الى مناطق صحراوية او جليدية

الثاني:

تحول البيئة الى حد من التكشف و الرخاء و العطاء المجاني ، الذي يكون مدعاة الى التراخي و ضعف روح التحدي و المجاهدة

و اما الأسباب التي تعود الى عامل الدافع الحضاري فلعلها من اهم الأسباب في افول الحضارة و تداعيها ، و اكثر انتشارا في سقوط الحضارات عبر التاريخ .

و بيانه ان يصيب اهل حضارة ما ارتخاء في الواقع الذي يدفعهم الى البناء الحضاري ، و فتور في إرادة الإنجاز اما على مستوى النفس الفردي او على مستوى الإرادة الجماعية، فاذا بالفرد يصيبه

انحباس نفسي يقلص فعاليته الى حد كبير فاذا هو يجتر حياته دون مبادرة او ابتكار، و كأن الوقود الذي كان يحركه و يدفع به الى الامام قد نضب ، او هو على وشك النضوب و اذا بالجماعة تتقاطع مصالحها وتتعارض قواها فينعدم فيها التحفز الجماعي .

وقد حاول مالك بن نبي ان يشرح هذا العامل النفسي في التراجع الحضاري ، فبين ان الفكرة في حالة الانشاء للحضارة تجعل من الروح في كيان الانسان قوة مسيطرة على العقل و الغرائز، ثم يضعف الدفع الروحي ليسود العقل ثم يزداد ضعفا من تلقاء ضعف التحمل للفكرة ، حتى تبرز الغرائز الفاعلة في توجيه الانسان و حينئذ يبدا التداعي الحضاري (شروط النهضة).